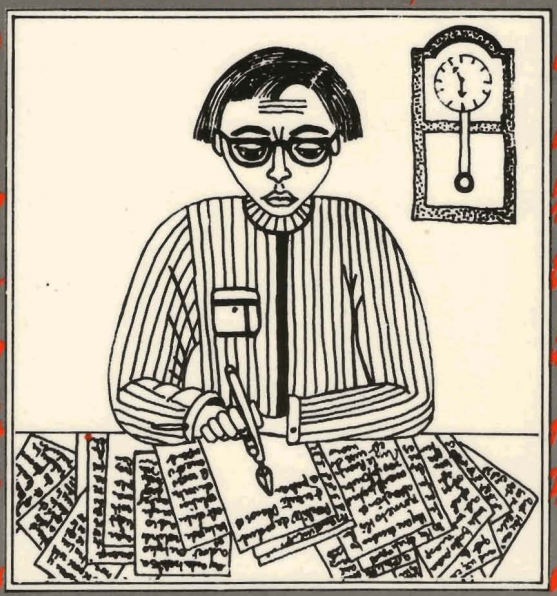

رحلة نحو البداية

كولن ولسن

ترجمة
سامي خشبة

دار الآداب

مؤلفات كولن ولسون

ضياع في سوهو	ترجمة يوسف شرورو
	وعمر يمق
المعقول واللامعقول في الأدب الحديث	ترجمة أنيس زكي حسن
أصول الدافع الجنسي	ترجمة يوسف شرورو
	وسمير كتاب
اللامنتمي	ترجمة أنيس زكي حسن
ما بعد اللامنتمي	ترجمة يوسف شرورو
	وسمير كتاب
القفص الزجاجي	ترجمة سامي خشبة
طقوس في الظلام	ترجمة فاروق محمد يوسف
سقوط الحضارة	ترجمة أنيس زكي حسن
رحلة نحو البداية	ترجمة سامي خشبة
الشعر والصوفية	ترجمة عمر الدايراوي
الحالم	ترجمة سامي خشبة
إله المتاهة	ترجمة سامي خشبة
الإنسان وقواه الخفية	ترجمة سامي خشبة
الشك	ترجمة يوسف شرورو
خفايا الحياة	ترجمة مجاهد عبد المنعم
	مجاهد

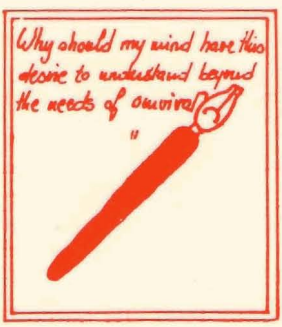

S.R.
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
32 ريال

تصميم الغلاف:
نيكول برسودر

EA 2041 7062 109009702
رحلة نحو البداية

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

رحلة نحو البداية

كولن ولسون

رحلة نحو البداية

ترجمة ذاتية ذهنية

ترجمة
سامي خشبه

منشورات دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة
١٩٨٨

مقدمة الترجمة

هناك مثل انجليزي يقول : « كلما كثر كلامك ، كثرت أخطاؤك » . ومن الصعب أن يكون هناك كلام أكثر تعرضاً للخطأ من الكلام عن الذات ، الكلام الذي يبدأ بكلمة « أنا » ، خصوصاً إذا كان الفعل التالي في صيغة الماضي . إنك لن تحكي قصة حياتك بموضوعية أبداً . ولهذا السبب رفض فولتير أن يكتب قصة حياته ؛ وكتبها روسو في صيغة اعترافات لكي يلزم نفسه بالصدق ؛ وفضل ديكنز ودستويفسكي وجوركي وجويس أن يكتبوا « عن » حياتهم على اعتبار أنها حياة أشخاص آخرين حتى يتيحوا لأنفسهم فرصة فحص « بعض » لحظات هذه الحياة وتحليلها بموضوعية أكبر ، وبانفعال أقل ، وحتى يتيحوا لقرائهم فرصة الانفعال الصادق ، دون أن يدفعوهم دفعاً مقصوداً اليه .

ولكن من البديهي أن يكون لكل مفكر الحق في أن يحكي قصة حياته . ومن البديهي كذلك أن يكون من حقه أن يختار الزاوية الخاصة التي سينظر إلى قصة حياته منها . وكولين ويلسون يقول إنه اختار الزاوية التي كان من المفروض أن يختارها وينظر منها كل مفكر ينوي أن يكتب ترجمته الذاتية . ويقول إنها الزاوية – بالتحديد – التي أهملها كل المفكرين الذين كتبوا قصص حياتهم . إنها زاوية « التربية الفكرية » الذاتية . الزاوية التي تتشكل من الاجابة على السؤال : كيف استطعت أن أكون عقليتي بهذا الشكل حتى أصبح لي هذا الموقف بالتحديد ؟ أي انه قرر منذ اللحظة الأولى أن يحكي لنا ترجمة ذاتية لذهنه ، وهذا هو ما يوحي به العنوان الفرعي للكتاب ، علاوة على أنها ترجمة « ذهنية » وثقافية . وإذا تحدث مثقف ، أو مفكر ، عن ذهنه ، فغالباً سيظن أنه يملك أحسن وأعمق عقل ولدته البشرية . وهذا هو ما حدث !

وبصرف النظر عن مقدار ما في اتهام ويلسون للمفكرين الآخرين – كتاب تراجمهم الذاتية – من حقيقة ، فلقد حاول هو أكثر من مرة في هذا الكتاب أن يلخص حياته في « عبارة واحدة » . كانت حياته في نظره أحياناً محاولة مستمرة لاثبات الذات والخروج – عن طريق الكتابة – من كهف الحياة الخانق (حياة الطبقة العاملة التي خرج منها) ؛ وكانت حياته في أحيان أخرى سلسلة مترابطة من البحث عن المعنى في الوجود والحياة ، أو بالعكس ، محاولة للافلات من عبثية الحياة ولا معناها . وفي أحيان ثالثة كانت حياته هي الاجابة العملية على تحديات العقل التي طرحتها عليه قراءاته وتجاربه المبكرة في « العلم » و « الفلسفة » . وهو يرى حياته في مرة رابعة باعتبارها الحياة النموذجية التي يمتزج فيها « الحسي » بـ « الذهني » ، تجارب الحياة اليومية العادية بـ « الأفكار » . وهو في كل محاولة من هذه المحاولات في سبيل إعطاء حياته معنى كلياً يشملها من بدايتها حتى لحظة تأليف الكتاب،

يمنحنا الإحساس بأن هذا المعنى كان قائماً كهدف معروف وعاه منذ البدء وعمل على تحقيقه . ولكنه يقرر بصراحة ما معناه أن « الهدف » الذي شرع يكرس له نفسه والذي يكتب هذه الترجمة الذاتية لكي يعلنه ، قد « طرأ » أو « تراءى » له فجأة وهو يلقي محاضرة عن الفلسفة الوجودية في أسلو ، العاصمة النرويجية . أي أن الهدف الذي يمكن أن يلخص حياته في « عبارة واحدة » لم يكن قائماً منذ البداية في وعيه ، ولم يكن يراه حتى بعد أن شرع يكتب كتبه الفلسفية وينشرها رغم أن « الهدف » النهائي الذي يعلنه هو تشييد فلسفة خاصة به .

لقد ظهر له في تلك اللحظة المعنى الحقيقي للخطوات الفكرية العملية التي كان قد خطاها في كتابيه الأولين : « اللامنتمي » و « الدين والمتمرد » (١) ، واكتشف أنه كان – دون أن يدري – بسبيل خلق فلسفة جديدة ، وجودية النزعة . ولكنه لم يكف منذ تلك اللحظة عن اكتشاف أشياء مشابهة : اكتشف أن عليه أن يقدم مفهوماً جديداً عن الفلسفة (ثم اكتشف أن الفلسفة هي محاولة لتعميم العلم وتحويل الفكر المجرد إلى علم أيضاً ، وبذلك تعود الفلسفة ، التي كانت علم العلوم إلى ما كانت عليه ، لأنه لن يعتمد على قوانين العلم في صياغة فلسفته ، وإنما سيحاول تركيب مقولات فلسفية يصفها بأنها هي « العلم ») ؛ واكتشف أن عليه أن يقدم مفهوماً جديداً عن الدين (ثم قدم اكتشافه الجديد للدين باعتباره الصورة الطبيعية لعلاقة الإنسان بالكون ؛ وهذا هو بالتحديد ما تبدأ به أي فلسفة دينية عادية منذ مجمع نيقية المسيحي ومنذ قانون المحنة الإسلامي) ؛ واكتشف أن عليه أن يقدم رؤية جديدة للسيكولوجية الإنسانية (وبدأ برفض فرويد والتحليل النفسي) ولكنه وصل إلى أن السيكولوجية الإنسانية يحكمها دافع واحد (لم يكتشفه حتى الآن) يجعلها تدفع الإنسان نحو « التحقق » ، (فإذا تذكرنا أن فكرة الدافع الواحد موجودة في التحليل النفسي بالفعل – انه الجنس الذي يقاوم غريزة تدمير الذات عند فرويد ؛ وهو إرادة التفوق عند أدلر ؛ وإرادة الحياة عند يونج) إذا تذكرنا ذلك ، فلن يفاجئنا أن ويلسون بعد رفضه لفرويد والتحليل النفسي برمته لم يجد سوى صورة واحدة من صور التحقق الإنساني ، وهي بالذات – ويا للغرابة – الجنس، الذي يعبر عند الذكر عن التفوق والانتصار والغزو ، وعند الأنثى عن الاستسلام والانفتاح والخضوع ، وليس هناك فرويدي يمكن أن يزيد على ذلك كثيراً .

قد لا يكون من المجدي في هذا التقديم القصير أن نشغل أنفسنا بمحاولة « مطاردة » كولين ويلسون في تناقضاته الكثيرة مع نفسه ، وفي صور « قبوله » المستتر لأفكار كان قد رفضها بصراحة وقوة منذ قليل ، وفي صور اعلانه الجريء لأنه « أول من فكر في كذا وكذا » أو « أول من اكتشف كيت وكيت » ؛ بينما تكفينا أقل المعلومات في تاريخ الفلسفة الغربية التي يعرفها ويلسون جيداً ويمدنا بوضوح بالخط الفكري الذي اختاره لنفسه من خطوطها الكثيرة لكي يتأثر به ويقتبس عنه (وسنتحدث عنه حالا) لكي نعرف من هو أول من فكر في كذا وكذا أو اكتشف كيت وكيت حقاً وصدقاً !

إنما سنهتم هنا أساساً بعرض ، ومناقشة أصول ، كتلة الأفكار الـ قدمها ويلسون في هذا الكتاب . وهي كتلة تلخص أصلا مجموع أفكاره التي قدمها في الواحد والعشرين كتابا التي

---

١ وهو الذي ترجم إلى العربية بعنوان « سقوط الحضارة » .

« حققها » من قبل ، كما يقول هو نفسه . ولكننا مضطرون في البداية إلى تحديد نوع التناقض بين تصوره عن نفسه وبين الحقيقة التي يكشفها عن نفسه أيضاً .

فبعد القراءة الأولى للكتاب ، سنكتشف هذا التناقض الفكري الغريب : إنه يقول بأنه يبدأ حياته الفكرية من خلال تعرفه على ديكنز وويلز وبرنارد شو . ويقول إنه يعتبر نفسه الامتداد الطبيعي لرؤية ديكنز الإنسانية وفكر ويلز العلمي وموقف شو الاجتماعي . ولكننا سنكتشف قبل نهاية الكتاب بقليل أن أقوى مؤثراته التي يكثر من الاقتباس منها والاستشهاد بها قد جاءت من اتجاه آخر تماماً : فمن أفلاطون يقفز ويلسون قفزة كبيرة لكي يصل إلى ويليام بليك ثم إلى ويليام جيمس ، وكيركجارد وهايدجر وسارتر ، وبرجسون ونيتشه وهوسرل ؛ ويتوقف عند « محطات » أساسية : ييتس وجيمس جويس وإليوت وإزرا باوند وبروست .

والنتيجة الحقيقية التي يصل اليها ، هي تركيبة لم يتم تمثلها بعد ، تجمع بالفعل بين شذرات متفرقة من أفكار مجموعة معينة من المفكرين والفلاسفة (سنحدد صورة جمعه بينهم حالا). ويمكن تلخيص هذه التركيبة في النقاط التالية :

* المشكلة الحقيقية للفكر هي اخضاع العالم للوعي ، وتحرير الإنسان من سيطرة اللاوعي . والوعي ليس نتيجة للمعرفة ولا نتيجة للتأثير الاجتماعي ، وإنما نتيجة لـ « تطور » ما ، لم يحدده ويلسون ولم يحدد مجاله ، يتزايد معدل سرعته ، ويحقق لعقل الإنسان القدرة على استشراف المستقبل في الزمان ، وغير المنظور في المكان ، وغير المحسوس في ذاته الحية . وهذا التطور ينتج أصلا من طفرة حيوية في الذهن ، تتحقق إذا تحرر الإنسان من سيطرة الاحتياجات الحسية عن طريق تحقيق أقصى اشباع لكل هذه الاحتياجات .

* ليس الوعي هنا وعي الجماعة البشرية ، ولا وعي أمة من الأمم أو طبقة من الطبقات ، ولا هو وعي « كل » فرد إنساني على حدة ، وإنما هو وعي أفراد معينين ، حبتهم الطبيعة أصلا بنوع من القدرة الفذة على تحقيق وعيهم بتحررهم والاحتياجات الحسية بعد اشباعها المطلق ، فيصبحون قادرين على تحقيق الطفرة الحيوية المطلوبة التي تحقق التطور النشوئي المقصود ، ويستطيعون بناء على هذا أن ينفذوا ببصائرهم إلى أعماق ذواتهم وإلى أعماق العالم ، حيث يرون « الحقيقة » .

* هؤلاء الأفراد المعدودون الموهوبون ، لا صلة تربط أحدهم بالآخر . وإنما هم يعملون كل على حدة من أجل تحقيق الوعي بالتحرر الحسي ، وتحقيق الطفرة الحيوية والتطور النشوئي والنفاذ إلى أعماق وجودهم (ووجود كل منهم يساوي في نظر نفسه وجود العالم ؛ فالنظر إلى العالم الخارجي ، اليومي ، العادي ، لا أهمية له . إنه مكون من « التوافه » التي تشغل حواس « الموهوب » وتحجل عقله وتحجب عنه « موضوع » النظر الحقيقي : أعماق الذات) رغم أن تحقيق التحرر من الاحتياج الحسي يحتاج أولا إلى اشباع هذا الاحتياج اشباعاً كاملا ومستمراً : بالجنس والطعام والمسكن . فالقضية بالنسبة لهم هي قضية تحررهم كأفراد ، واشباع احتياجاتهم هذه من أجل افساح الطريق لإنشاء هذا النوع الإنساني الفذ الذي يجب أن تقبل البشرية كل شيء من أجل إنشائه .

* وعي هؤلاء الأفراد الموهوبين ليس وعياً « عمدياً » ، فانهم لا يتعمدون حصولهم عليه ، ولا يتعمدون اسقاطه على أغراض معينة ، أي لا يتعمدون فحص ذواتهم به ، وإنما هو وعي «تلقائي»

يظهر فجأة في لحظات معينة . و « وظيفة » الفلسفة الجديدة التي تهدف إلى « تعميم العلم » هي تحويله من تيار متقطع لحظي يحدث فجأة ، إلى تيار مستمر ، دائم يحدث ارادياً . فالوعي قادر على تحقيق « التجربة الفذة » إرادياً (وهي تجربة تخطي حدود الزمان والمكان والذات) رغم انه وعي تلقائي ، يوجد عند أصحابه بالفطرة ، وعليهم بـ « الفلسفة الجديدة » أن يدربوا أنفسهم على استخدامه بشكل منظم لكي يستمروا في حالة « التجربة الفذة » أطول وقت مستطاع ، لكي يكشفوا عن أكبر مساحة ممكنة وليصلوا إلى أبعد عمق ممكن من الحقيقة ، في العالم وفي ذواتهم .

* الهدف النهائي لهذه العملية هو تحقيق امتزاج الإنسان (عن طريق هؤلاء الموهوبين) بالكون ، وبالطبيعة ، والناس والتاريخ والمستقبل : بالزمان كله وبالمكان كله والآخرين جميعاً ؛ هذا الامتزاج الذي لا يعطله إلا قصور الوعي الحالي المؤقت وهذا القصور الذي لا يستمر إلا لانشغال الناس بتوافه الحياة اليومية .

* * *

من هذه النقاط التي حاولنا ما وسعنا الجهد أن نجعلها تصويراً أميناً لكتلة أفكار كولين ويلسون أو ما يفترض أنها أفكاره في كتابه الذي نقدمه الآن لقراء العربية ، من هذه النقاط نستطيع أن نكتشف حقيقة « ثقافية » ممتعة وجديرة بالاهتمام : فهذه الأفكار في الحقيقة ، نتيجة مباشرة لعملية انتقاء دقيقة ، وإعادة ماهرة لصياغة الكثير من الأفكار القديمة الشائعة في الفلسفات الغربية الحديثة والمعاصرة . وأحياناً لا يقدم كولين ويلسون الفكرة المستعارة كما هي ، وإنما يقدمها « مقلوبة » أو معكوسة إلى وجهها الآخر لكي تتلاءم مع الاتجاه العام للثوب الفكري الذي يريد ويلسون الطموح أن ينسجه ، وأن يجعل منه فلسفة جديدة خاصة به .

وقبل أن نقدم تحليلنا لهذه « الاستعارات » ولكيفية « لحمها » إحداها بالأخرى ، نحب أن نشير منذ البدء إلى أن ويلسون في الحقيقة لا يقف عند حدود الاستعارة ، ولا يهدف إلى مجرد اصدار كتاب يحمل اسمه . إنه يملك هدفاً ثقافياً محدداً أعلن عنه بالفعل منذ كتابه الأول « اللامنتمي » هو العمل على خلق تيار جديد للفلسفة الغربية الفردية والمثالية يمدها بقوة جديدة وقدرة جديدة على البقاء . ولعل سر الاهتمام الأمريكي على المستوى الجامعي به ، هو اكتشاف الجامعيين الأمريكيين لأهمية مفكر ما زال شاباً ، يحمل لواء القيم الثابتة في الفلسفة المثالية الفردية الغربية ، ويتمتع في الوقت نفسه بجماهيرية « المفكر الشعبي » الذي يقبل عليه القراء اقبالا معقولا جداً بالنسبة لنوعية كتبه غير « الشعبية » . ولعله من المهم أيضاً أن نشير إلى امكانية المقارنة بين موقف الجامعيين الأمريكيين الرسميين من فيلسوف « أمريكي » مثل هربرت ماركوز ، يرفض الأسس السياسية والاجتماعية والفكرية للحضارة الغربية المعاصرة ، ويحاول أن يقدم منظوراً فلسفياً جديداً (في تواضع جدير بفيلسوف ودون أن يزعم أنه « قرر » أن يخلق فلسفة جديدة) للمجتمع الغربي يجمع فيه بين المواقف النقدية الفلسفية الكبرى : الكانتية والماركسية والفرويدية ؛ وبين موقف هؤلاء الجامعيين الرسميين من مفكر مثل كولين ويلسون يعلن « عدم اهتمامه » بمشاكل « الحياة اليومية » ، ويعلن تفسيره « الذهني » لكل مظاهر التفسخ الجماعي والتمرد الفردي والجماعي في المجتمعات الغربية ، ويعلن أن ما ينقص هذه المجتمعات ، وعلى رأسها المجتمع الامريكي نفسه هو « فيلسوف وجودي » يقف على أرض « التكيف » مع الفلسفات غير النقدية ، التأملية ، في سبيل تحقيق « تكيف » الإنسان الغربي المتمرد ، اللامنتمي ، مع المجتمع الغربي بوضعه الراهن . وجدير بنا أيضاً أن نشير إلى امكانية المقارنة بين الاستقبال الثقافي الضخم الذي لقيه ويلسون عند

بداية ظهوره في انجلترا عام ١٩٥٦ ، وبين ما انتهى اليه المثقفون البريطانيون (الواقعون تحت تأثير حركات الشباب الجديدة في بريطانيا وفي غرب أوروبا بوجه عام) من لامبالاة تكاد تكون كاملة بما يكتبه ويلسون أو بما يفعله ، مع تزايد اهتمام الجامعيين الأمريكيين به ، وفي مقابل هذا تناقص ارتباطه بانجلترا ، وطنه ، وتزايد اهتمامه بـ « ما تهيؤه له أمريكا » من فرص « التحرر من الاحتياجات الحسية » عن طريق تحقيق الاشباع الكامل لهذه الاحتياجات .

هذه كانت إشارات عابرة ، لتأكيد أهمية ويلسون ، في كتابه هذا على وجه الخصوص على الأقل ؛ هذه الأهمية المستمدة من محاولته نفسها التي يبذلها من أجل مد الفلسفة الغربية غير النقدية بدماء جديدة . ولكن لعله من المناسب الآن أن نبحث عن مدى « جدة » الدماء التي قرر ويلسون أن يدفعها في الشرايين القديمة المتصلبة . ولنبدأ بالبحث عن مصادر أفكاره .

* * *

* إن تحديد المشكلة الأساسية للفكر بأنها اخضاع العالم للوعي وتحرير الإنسان من سيطرة اللاوعي (وهي سيطرة تتجسد في شكل رغبات حسية أساساً) ليس سوى « الاعتراض التكميلي » المباشر لفكرة مدرسة التحليل النفسي عن سيطرة اللاوعي على الوعي في ذهن الإنسان . ولكن الاعتراض هنا مستمد من الموضوع المطلوب دحضه بتعبير المناطقة . ولكن بدلا من الزاوية « الوصفية » التي يتخذها التحليل النفسي ، يتخذ ويلسون موقف « البناء » . إنه يسعى إلى بناء « نسق » فكري من لبنات مستعارة كثيرة ولا يسعى إلى وصف « عقل » الإنسان كما يسعى التحليل النفسي . ولذلك فان الاعتراض الايجابي ، الذي يستكمل فكرة التحليل النفسي بضدها ، يمتزج مباشرة باستعارة صريحة من فكرة برجسون عن الطفرة الحيوية وعن الفلسفة النشوئية حول تطور وجدان الإنسان .

ولكن برجسون كفيلسوف كلاسيكي ، كان يتحدث عن الإنسان « المطلق » وويلسون يتحدث عن إنسان محدد ، يتحدث عن نفسه ، ويقدم ذاته باعتبارها موضوع « تجربته » العلمية التي استخلص منها نتائجه . إنه يقدم ذاته كنموذج لنوع معين من البشر ، لم يصادف أياً من أفراده حتى الآن (سواء هو نفسه بالطبع) ولكنه يدعو إلى « صناعة » هذا النوع باللجوء إلى « فلسفته » الجديدة .

ولذلك فهو يخصص في الخطوة التالية التعميم الذي سبق أن استعاره من التحليل النفسي ومن فكرة برجسون النشوئية عن الطفرة الحيوية . وتخصيصه لا بد أن يعتمد على « مصدر » آخر ، ويسعفه كيركجارد هذه المرة بالمصدر المطلوب . . إن صوفية الفيلسوف الوجودي المؤمن تجد مكانها هنا بالحديث عن « التحرر من الاحتياج الحسي » باشباعه وبالوعي بهذا الاشباع كنتيجة له . والحق أن ويلسون لا يأخذ عن كيركجارد مباشرة ، وإنما يأخذه ملوناً بتفسيرات هايدجر وجابرييل مارسيل عن « الغريزة الخاصة » التي يسميها ويلسون « البصيرة » أو القدرة على الاستبصار ، دون اشارة إلى مصدرها الأصلي . إن الطفرة الحيوية لا تحقق التطور النشوئي لوجدان البشرية عموماً كما هي عند برجسون ، وإنما هي موهبة خاصة منحتها القوى الكونية لأفراد بعينهم . أحدهم ، والوحيد الذي يعرفه ويلسون من بينهم ، هو ويلسون نفسه (لأن النماذج الأخرى التي يقدمها بنفسه من أصحاب البصيرة تصور أشخاصاً غير واعين بموهبتهم ، ولذلك ظلت مواهبهم مطمورة بشكلها الخام لا نفع لها إلا في بعض الممارسات اليومية العادية التي تختلط أحياناً بالشعوذة حتى في نظر أصحابها) .

وهنا يتقدم سارتر ، وأرنولد توينبي ، كل من ناحيته ، ليساهم بنصيبه في حديث ويلسون عن « عزلة » الموهوبين . إن عزلتهم هنا ليست عزلة المتصوف الذي يتنصل من المسؤولية ، إنما هي عزلة النبي ، والوجودي ، التي تهيئ له فرصة اكتشاف رسالته ، وتؤكد مسؤوليته . فويلسون يقدم « نموذجاً » للآخرين ، ولا يقدم « حالة » شاذة . ولذلك ، ولكي يتسق البناء كله ، لا بد أن يتحدث ويلسون عن المسؤولية المفترضة للموهوب ، باعتباره مسؤولا ، لا عن موقفه الخاص كما يقول سارتر ، إنه لا « يختار » ولا تنبع مسؤوليته من اختياره وإلا لتساوى كل البشر في القدرة على الحصول على الحرية ؛ وإنما تنبع مسؤوليته من موهبته ، من تفوقه الفطري . وهنا يستمد ويلسون من نيتشه بصراحة – ولكن دون تصريح – حين يتحدث عن مسؤولية هذه القلة السامية من الموهوبين عن مصير التطور النشوئي العقلي للبشرية. فرغم عملهم كل على حدة ، فانهم يعملون من أجل « ريادة » البشرية في طريق هذا التطور الصعب .

وهنا يصبح من الضروري الاستفادة بالمصدر المنتظر : هوسرل والفلسفة الظاهراتية . فإذا كان وعي هذه القلة وعياً فطرياً ، فإن العملية التي تتجه عملية تلقائية وليست عملية عمدية كما يقول هوسرل . وتظل فكرة هوسرل عن « استحالة وجود موضوع دون ذات » ، ولكن الفكرة التالية ينبغي أن تنعكس لكي يستقيم الاتجاه العام عند ويلسون . فالذات توجد أيضاً إذ تعي نفسها ، وليس قبل ذلك ، ومن لا يعي ذاته يستوي وجوده مع وجود « الدودة الغارقة في قطعة الجبن » . والمزج هنا واضح بين الفكرة الظاهراتية وبين جزئية أخرى مستمدة من الوضعية المنطقية حين يصبح الوعي هو شرط الوجود ، ولا وجود لـ « الوجود » نفسه دون وعي أبداً . إن ما لا يراه ويلسون لا وجود له . ولكن الوقوف عند هذه النتيجة سيقلب « النسق كله » رأساً على عقب ، وسينتهي بالفيلسوف الجديد إلى القبول بفلسفة قديمة – هي الوضعية المنطقية ، وهو ما لا يريده – ولذلك تعكس الجزئية الوضعية أيضاً لكي تسير في الاتجاه العام . فالوعي المقصود هنا ليس وعي الناس أو الأفراد ، وإنما هو الوعي المكون الذي يتمتع به الموهوبون ، والذي يتخطى حواجز الحواس التي تسوي بين كل البشر والتي يقول بها الوضعيون . فالموهوبون يستخدمون « راداراً » شبيهاً برادار الخفاش أو الطيور أو الأسماك المهاجرة . والوعي أساس الوجود ، هذا صحيح ، ولكن مصدر الوعي ليس هو الحواس أو المدركات الحسية ، وموضوع الوعي ليس هو ما ألمسه لمساً مباشراً بإحدى الحواس ، وإنما هو ما يمكن أن « أتصوره » وراء المكان الحالي والزمان القائم والأصدقاء الذين أجلس بينهم .

ولما لم يكن لأحد من الناس – المعروفين لويلسون على الأقل – كل هذه القدرات ، إذن ، فلتتحول تجربته الخاصة – التي علينا أن نصدقها كلها أو نكذبها برمتها – لتتحول هذه التجربة إلى « أمل » للبشرية ، أمل تحقيق هذا النوع من الوعي باستخدام هذا النوع من الوسائل ، من أجل تحقيق العثور النهائي على طريقة الامتزاج بالكائن المطلق ، أو الله ، أو الوجود في ذاته ... إلى آخر ما يمكن أن يمده به علم النفس الديني والتوماثية الكاثوليكية الجديدة .

* * *

ليس كولين ويلسون هو أول المفكرين الانتقائيين ولن يكون آخرهم . وقد كان من الطبيعي أن تنتهي كل المواقف الفكرية التلفيقية إما إلى الافلاس الكامل وغوص أصحابها تحت مياه النسيان الكثيفة الراكدة ، وإما إلى تطور أصحابها إلى مواقف أكثر تحديداً وأصالة تؤدي بهم إلى أن يقوموا بأنفسهم بدفن مواقفهم التلفيقية الأولى .

وليس ما يهمنا هنا هو التنبؤ بما سينتهي اليه كولين ويلسون ، رغم أنه يعد في نهاية كتابه وعداً يرجح بنفسه أنه لن يستطيع الوفاء به إلا إذا عاش مئة سنة أخرى حياة نشيطة ومنتجة . وهو الوعد بأن يكتب « فلسفته » الخاصة الجديدة ، كفيلسوف وجودي يتقدم لينقذ الفكر الغربي من الافلاس الذي يعلنه بنفسه .

إن ما يهمنا حقاً ، هي المحاولة التي يبذلها ويلسون هنا ، من أجل عرض نموذج على درجة عالية من الواقعية – رغم ما يذهب اليه المؤلف في تقييم نفسه أو تصنيف كتابته – لحياة مثقف انجليزي ، عاش حياة متسعة ومتنوعة ، على المستوى الفكري وعلى مستوى العلاقات اليومية العادية ، في الفترة التي سبقت الانفجارات الفكرية والاجتماعية الأخيرة في الغرب الانجلواميركي.

ولحسن الحظ ، فان ويلسون عاش هذه الفترة قبل أن يكتشف في نفسه ذلك الفيلسوف المنتظر ، منقذ الفلسفة الغربية من الافلاس ، وقبل أن يقرر اعتزال الحياة اليومية اعتزالا فعلياً في انجلترا ، حينما رحل عن لندن لكي يعيش في كوخ منعزل على شاطىء البحر ، أو اعتزالا روحياً وعقلياً حينما تحول إلى أستاذ زائر – بمرتب ضخم ومسكن مجاني مريح – في الكليات العليا والجامعات الأميركية .

عاش ويلسون هذه الفترة « شاباً » ، وعاشها متجولا بين المدن والشوارع والمنازل المؤجرة والمهن والعلاقات ، والأفكار . ولذلك فلا شك أنه عاشها بعمق ، وإن كان قد عجز عن فهمها فهماً اجتماعياً وسياسياً صحيحاً . وكان ذلك لأنه عاشها كما تعيش الذات الفردية ، التي يمنحها الضعف الناشئ من وحدتها حساسية نافذة ؛ وتمنحها الوحدة والرغبات الكبيرة شعوراً بأن عليها أن تغزو العالم بمهارتها وبموهبتها في وقت واحد : المهارة تتيح لها امكانية التغلب على المصاعب اليومية في السكن والعمل والحب والحصول على اعجاب الآخرين والنفاذ إلى المجتمعات المغلقة ؛ والموهبة تتيح لها أن تحقق لنفسها – بالاستثمار المفيد للطاقة وبالاجتهاد الدؤوب والمركز في اتجاه واحد – مكاناً في الحياة الثقافية والفكرية لمجتمع شحيح في عطائه للفقراء . ولكن الحساسية تهيء لها أن تعيش تجربتها بعمق ، وإن حرمها شعور « الغازي » من فهم هذه التجربة على النحو الإنساني الصحيح .

لقد عرف ويلسون تجمعات الشبان الثقافية والفكرية والفنية التي نمت داخلها نزعات التمرد والرفض والتجديد الحديثة . وعرف التجمعات الفكرية – الدينية والسياسية – التي خلفتها انفجارات القرن الماضي والحربين العالميتين ، ثم تحولت إلى تجمعات جنينية – بالمعنى السوسيولوجي – تضم « أجنة » فكرية ونفسية عجزت منذ البداية عن العثور على الطريق الصحيح للنمو ، ففضلت على الدوام أن تظل في قلب « الرحم – الجماعة » الذي يضم أجنة كثيرة ترفض أن تولد وترفض أن تموت . وكان لهذين النوعين من التجمعات (الجماعات الفنية والفكرية للشبان ، وجماعات المتدينين والفوضويين وغيرهم) أثرهما الحقيقي على تكوين الموقف الفردي الاستفزازي عند كولين ويلسون (حين كان يكتشف على الدوام أنه لا يصح أن يتحول إلى « جنين » محروم من الولادة وغير مستسلم للموت مثل بقية أعضائها وأن عليه أن يكتسب خبراتهم أو أحسن علاقاتهم ثم يهجرهم على الفور) ولكنه استطاع أن ينقل من خلال خبرته بهذه الجماعات الصورة الحقيقية لها من الداخل ، واستطاع أن ينقل لنا « المادة » الكافية لكي نتصور نحن من خلالها الدور الذي لعبته هذه التجمعات في « تخمير » عجينة انفجار الشباب في الغرب الأميركي بعد ذلك بنحو عشر سنوات .

وليس من المستغرب أن يتحول ويلسون إلى « ناقد أخلاقي » للطبقة العاملة التي خرج من وسطها ، بمثل ما يتحول إلى ناقد « ذهني » للمجتمع الذي يقهر هذه الطبقة . فان موقفه من طبقته ليتطابق تماماً مع رغبته في تحقيق « التكيف » مع الفكر التأملي ، غير النقدي ، للمجتمع الغربي ، أي مجتمع الطبقات القاهرة ، رغم أن جوهر موقفه من هذا المجتمع هو « التحدي » وليس الرفض . إنه يتحداهم أن يرفضوه أو أن يستغنوا عنه . ومن المؤكد أن قوة كتبه في « السوق » تؤكد أنه « يتحدى » كتاب الصحف المتحدثين بلسان هذا المجتمع والذين يتجاهلونه ، يتحداهم من موقع القوة التي يستمدها من مشتري كتبه المنتمين إلى نفس هذا المجتمع . ولذلك فان هؤلاء الكتاب يكتفون الآن بتجاهله ، ولا يجرؤون على رفضه ، بينما تستمر الصحافة الشعبية في معاملته كنجم تستحق حياته الخاصة أن تسجل وأن تلتقط لها الصور في المناسبات الهامة .

لقد استطاع ويلسون أن يخرج من كهف الحياة الخانقة للطبقة العاملة ، اعتماداً على مهارته وعلى موهبته . ولذلك فانه يشعر أن من حقه أن ينظر اليه باعتباره « فرداً متفوقاً » وأن تنظر اليه الطبقات العليا وأجهزة أعلامها باعتباره نداً لها بل وباعتبارها في حاجة اليه ، فكرية واجتماعية .

ولو نظرنا اليه من هذه الزاوية ، لاكتسبت كل تحليلاته ومواقفه الفكرية والاجتماعية اتساقها المفقود . إنه مفكر ذاتي رغم كل جهده التأملي لموضعة أفكاره . وربما كان اعتماده الكثير على التجارب المستمدة من حياته الشخصية مدفوعاً برغبته في تأكيد القيمة الفذة لتجربة خروجه من مستوى العامل الأجير العادي ، نصف المتعلم ، إلى مستوى « البورجوازي » المحترم ، الذي ينتزع فتاة « بورجوازية محترمة » من عائلتها قسراً ، ويشتري منزلا في الريف ، وتهتم به الصحافة وبنبأ ولادة ابنته ، وتهتم به الجامعات الأجنبية ، وتترجم كتبه إلى لغات كثيرة غريبة . إنه يصر على أن يحصل رسمياً على اعتراف « المتفوقين بحكم المولد والتعليم » بتفوقه هو ، الذي يعتبره أكثر قيمة من تفوقهم ، لأنه حقق تفوقه بمجهوده الفردي ، بمهارته وبموهبته ، بينما لا يحصلون هم على « الاعتراف بالتفوق » إلا لأنهم هكذا ولدوا ، متفوقين « اجتماعياً » بحكم قوة المال أو النفوذ . ويتماثل هذا مع اصراره على اعتراف المثقفين « المعترف بهم اجتماعياً » ، الذين يتجاهلونه الآن أو لا ينظرون اليه بجدية ، أو لا يعتبرونه « الفيلسوف المنتظر » كما يجب أن ينظر اليه ، عن طريق عملية تشبه « المباهاة » بما يشتريه من كتب أو اسطوانات تسجيلية ، أو بما يصله من خطابات ، أو بما يحدثه كلامه من تأثير .

ليس من الضروري اذن أن ننظر إلى « الترجمة الذاتية الذهنية » التي كتبها كولين ويلسون باعتبارها كتاباً في الفلسفة ، يضع فيه مقدمة لمذهبه الفلسفي أو يشرح فيه حياته (كنموذج) على ضوء هذه الفلسفة . لقد كان هذا نوعاً من الطموح لم ينجح ويلسون في تحقيقه لأسباب كثيرة . ومع هذا تظل للكتاب قيمة كبرى : إنه المادة الواقعية التي قد تساعدنا على فهم فلاسفة آخرين ، والأهم من هذا ، إنها تساعدنا بالفعل على تصور واقع معاصر لنا ، نحن في أشد الحاجة إلى فهمه !

سامي خشبه

الفَصلُ الأوّل

الأهداف والدوافع

إن ما أرمي اليه في هذه الصفحات هو أن أوضح ، بقدر ما يمكنني من الامانة ، أهداف عملي الأساسية ودوافعه ، وأن أربطها بأحداث معينة من حياتي الخاصة حيث تقوم بينهما مثل تلك الرابطة ، وليس المقصد من هذا الكتاب أن يكون ترجمة ذاتية عادية أو رسمية ؛ فإن أحداث حياتي لا تثير لدي ما يكفي من الاهتمام لكي تدفعني إلى محاولة شيء من هذا القبيل ، إلا حيثما يمكن أن تستخدم لتصوير فكرة معينة . وهذا بالاضافة إلى أن الأدب القصصي هو المكان الصحيح للترجمة الذاتية . وقد حدث ذات مرة أن سأل صديق لي إرنست هيمنجواي عن شعوره إزاء كتاب معين كان قد كتبه حول باكورة حياته حينما كان يعمل مخبراً صحفياً في كانساس سيتي . وأجاب همنجواي قائلاً : « انه كتاب مقزز . لقد كنت أنوي أن أستخدم كل تلك المادة في كتبي ، وها هي الآن قد ضاعت وأهدرت » . وهذا هو ما يعبر عن موقفي الخاص من الترجمة الذاتية .

هناك مشكلة معينة لا تكف عن إزعاجي والالحاح علي ، وهي مشكلة

طالما أزعجتني بصورة أو بأخرى . وهذه هي : ففي ناحية يوجد العالم ، وهو مكان جميل ومعقد وهائل ، ممتلىء بما يكفي من المشاغل لكي يشغل الإنسان مليوناً من الأعوام . وفي الجانب الآخر يبدو ذلك الضيق والقصور الذي يتميز به الوعي الإنساني . إننا نشبه الجياد المغماة ؛ ونحن لا نكاد نشعر بشيء أو ندرك شيئاً إلا الدقيقة التي نعيشها ، أو الحجرة التي يتصادف أن نكون جالسين فيها . لماذا ؟ لماذا وضعت الطبيعة هذا الغماء على الإرادة الإنسانية ؟ لماذا يموت الكثيرون منا وقد ملأهم الضجر وأرهقتهم الحيية في سن السبعين ، متشكين من أننا قد استهلكنا العالم كله وعرفناه عن ظهر قلب ؟

كانت واحدة من أقدم الحكايات التي تعلمتها في المدرسة تسمى حكاية « العجوز التي تسكن في زجاجة الخل » . وهي تحكي قصة الجنية الطيبة التي كانت تطير فوق أحد الأخصاص ذات مرة حينما سمعت صوتاً واهناً يشكو همومه : « آه يا ني ! آه يا ني ! » . وتحرت الجنية عن مصدر الصوت فوجدت امرأة عجوزاً تسكن في قنينة كبيرة من قناني الخل وتشكو من ضيق مسكنها . وبحركة من يدها حولت الجنية قنينة الخل إلى كوخ صغير جميل ؛ وتشكرها العجوز وتطير الجنية . وبعد شهور قليلة تمر الجنية بالكوخ فتدخل لكي ترى كيف تستمتع العجوز ببيتها الجديد . وكان أول ما سمعته هو نفس الصوت الشاكي يقول : « آه يا ني ! آه يا ني » . فأدوات الحمام غير ملائمة ، والبئر بعيدة جداً عن المنزل ، والسقف المتشقق يجعل قطرات المطر تتسلل الى الداخل ، وهكذا . وتحرك الجنية الطيبة يدها فتنقل المرأة العجوز إلى منزل فخم تمتد اليه كل الوسائل الصحية ، والماء الساخن والماء البارد يجريان في صنابير الحمام . وبعد شهور قليلة تأتي الجنية مرة اخرى لزيارة العجوز ، فتجدها ما تزال تئن « آه يا ني ! آه يا ني » . فالخدم غير أمناء ، وضجة الطريق تحرمها من النوم طول الليل . والتجار في الحي لا يحترمون أحداً ... وهكذا تحرك الجنية

يدها مرة ثالثة ، ويتحول المنزل إلى قصر رائع . وتمر عدة شهور ، وتأتي الجنية مرة أخرى ، ولكنها تجد أن العجوز ما زالت تئن وتشكو . فالمكان واسع أكثر من اللازم وبارد ، وتدفئة الحجرات مسألة صعبة مع الاحتفاظ بنظافتها باغلاق النوافذ ، وخدم المطبخ لا يكفّون عن السرقة ، والمنظر في الخارج لا يبدو بالصورة التي كانت ترجوها . وهكذا ، ففي زفرة غضب أخيرة تحرك الجنية يدها وتنقل العجوز لتعيدها من جديد إلى قنينة الخل .

وبالنسبة لي ، ترمز هذه الحكاية إلى الطبيعة البشرية — إنها قوية الرمز إلى درجة تقرب بينها وبين قصة سقوط الإنسان . ففي كل يوم أتبين أن ثمة طبيعة ساخرة قد منحتنا كل ما يمكن أن نشتهيه — ثم تعمدت أن تمتنع من إعطائنا القدرة على التمتع بما وهبناه . ولقد رأيت ما يثبت هذا أخيراً في حالة والدي . لقد قضى حياته كلها يعمل عملاً شاقاً في المصانع ، دون أن يتمتع بأجازة ما باستثناء يوم واحد كل فترة طويلة يقضيه على شاطىء البحر . إنه يحب الريف ، ويقضي عطلاته الاسبوعية في صيد السمك أو في البحث عن نبات عش الغراب أو التوت البري الأسود . وحينما بدأت في الحصول على المال عن طريق الكتابة استأجرت كوخاً في مقاطعة كورنول ، وكانت الأسرة تأتي بانتظام لتمضية أجازتها الطويلة ، وقد سعد أبي في هذا الكوخ وازداد مرحه . كان يستيقظ عند الفجر في كل يوم ويخرج حاملاً أدوات صيد السمك أو فخاخ صيد الأرانب أو باحثاً عن نبات عش الغراب . وكان في الماضي قد اعتاد أن يقول إنه لو استطاع أن يعيش في كوخ في الريف له حديقة خلفية جميلة ، لما احتاج إلا القليل من المال لأمور حياته . وفي النهاية انتهت مدة عقد إيجار الكوخ ، فقررت أن أبحث عن مكان أكثر اتساعاً يكفي للاحتفاظ بكتبي وأسطواناتي الموسيقية . وعثرنا على منزل ريفي واسع من طابق واحد مزود بهكتارين من الأرض وبيت زجاجي ضخم للنباتات . وبدا

هـــذا المنزل كما لو كان الفرصة المثالية لوالدي ، مكتملاً ونموذجياً من جميع الوجوه ، وهكذا فقد دعوت الأسرة للانتقال اليه . وجاءت أمي مع أبـي ومعها شقيقتي الصغرى ذات السنوات العشر سوزان ، جاءوا جميعاً من لايبستر ، وانتقلنا إلى المنـــزل الجديد في وسط صيف جميل .

وبدا والدي الذي واجهته إجازة لا نهاية لها ، منزعجاً وقد أخـــذه الضيق . وبدلاً من الاختفاء كل صباح للبحث عن الأرانب وعن نبات عش الغراب، فإنه كان يفضل القيام باجتثاث الحشائش أو زراعة أنواع أخرى لبضع ساعات قليلة في الحديقة ، ثم يسير متجهاً إلى الحانة القريبة . ولم يكن هذا بدافع من أي احتياج حقيقي إلى قدح من البيرة ، وإنما لمجرد قتل الوقت . وتوقفت رحلات صيد السمك . وكان من الواضح أن الضجر قد تملكه وأنه قد وصل إلى نهاية قدرته على الاحتمال . وبعد ستة شهور من هذا الضيق ، قررت أمي أنه قد آن للأسرة أن تعود إلى لايبستر . وعاد ابـي متردداً . فرغم أنه قد وجد ان الحياة في الريف أقل متعة مما كان يتوقع ، فإنـــه لم يشعر بأي حماس للعودة إلى العمل في المصنع . ولكنهم ذهبوا إلى هناك ، ووجد أبـي صعوبة في التكيف ثانية مع المصنع وحياة المدينة تماثـــل الصعوبـة التي واجهته في التكيف مـع حيـــاة الريف . فأصيب بالسرطان ، وكان عليه أن يقضي عدة شهور في أحد المستشفيات .

حقاً إن أبـي يواجه وضعاً سيئاً لا ميزة فيه حينما يصل به الأمر إلى مواجهة مشكلة الحرية . إنه من صنف الرجل العملي تماماً ، الذي يحب أن يكون لديه ما يصنعه بيديه . إنه يقرأ الصحف ولكنه لا يقرأ كتاباً أبداً . فإذا كان لديه من الوقت ما يقتله فإنه يفضل أن يفعل ذلك في إحدى الحانات ، يتحدث مع صديق وأمامهما قدحان من البيرة المرة أو

يلعبان دوراً من الضومينو . ولكن إلى أي مدى يستطيع أحدنا أن يزعم أنه في وضع ممتاز حينما نصل إلى مناقشة وقت الفراغ ؟ إنني منذ خمسة عشر عاماً لم أكن أريد شيئاً سوى أن يكون لي منزل هـادىء مزدحم بالكتب والأسطوانات الموسيقية . وأنا الآن أحيا على بعد ميل كامل من أقرب قرية وعلى بعد عشرة أميال من أقرب مدينة . وإذا بدأت الاستماع باستمرار إلى مجموعتي من التسجيلات الموسيقية منـذ الليلة لاستلزم الأمر شهرين من الاستماع المتواصل لكي أصل إلى آخر هذه التسجيلات ؛ وإذا استطعت أن أنقطع لقراءة كل ما في المنزل من كتب بمعدل كتاب واحد كل يوم لتطلب الأمر عشر سنوات لكي أفرغ من القراءة . وعلى الرغم من هذا فإنني كثيراً ما أجد نفسي خالياً من كل عمل حبيساً في فترة من الجمود الذهني : إن وعيي في ضيق ثقب المفتاح ، وليس هناك كتاب أو تسجيل موسيقي في المنزل يستطيع أن يخرجني من حالة السبات والبلادة الكاملة . في هـذه الحالة لا أستطيع أن أكتب ولا أستطيع أن أقرأ ، ولا تكون بي رغبة في رؤية الأصدقاء أو في الأكل ولا حتى في الشراب . فكيف لي أن أزعم أنني أقل من أبي شبهاً بالعجوز ساكنة قنينة الخل ؟

* * *

هذه هي المشاكل التي يبدو لي أنهـا لم تذكر أبداً في أية ترجمة ذاتية . كما لم تذكر أية مشكلة من المشكلات التي تشغل انتباهي باستمرار . إن هذا لأحد التحديات الدائمة التي أواجهها . لماذا لا تذكر هـذه التحديات ؟ هل لدينا سبب ما يدفعنا إلى أن نفضل تجنب ذكرها ؟ أم أننا لا نراها ولا نشعر بها ؟ ام أننا نراها ونشعر بها ثم لا نعزو اليها ظلاً من أهمية ؟ إذا كان التفسير الأخير هـو الاجابة الصحيحة فنحن بلهاء وحمقى ؛ لأن هذه المشكلات من النوع القاتل المميت . وتجاهلها إنما

يشبه تجاهل التعليمات التي تقضي بضرورة غلي الماء الملوث أو تعقيم لبن البهائم المصابة بالسل .

وفي معظم المسائل التكنيكية تتطلب حضارتنا أن نقوم بوضع التحديدات والتعريفات الدقيقة . فكل عالم يعرف أهمية تصنيف كل جزء من أجزاء مادته ؛ وكل رجل أعمال يعرف أهمية حفظ أوراقـه وملفاته في نظام وترتيب . وحتى فلسفتنا ونقدنـا الأدبي يتحولان إلى الطابع العلمي ، فيُحمّلان بالمصطلحات والتعريفات في نفاد صبر من الغموض ونفوراً من عدم التحديد . ولكن الحياة وعملياتها السيكولوجية ما يزالان خاضعين لقانون « دعـه يعمل » ، قانون اللامبالاة . إننا لا نسعى وراء أي تحديد للأهداف والأغراض والقواعد الحاكمة الأساسية . ورغم أن الحياة لا تشبه شيئاً قدر ما تشبه سباقاً لتخطي الموانع حيث يزداد ارتفاع هذه الموانع خطورة ، وهي موانع غير مرئية أصلاً ، فإننا نواجه كل يوم جديداً بنفس الروح التجريبية وعلى أساس نفس الغموض .

أسمحوا لي أن أقدم مثالاً لما أعنيه . لقد قرأت في اليوم السابق رواية كتبها آرتسيباشيف [1] تسمى « المليونير » وعـلى عكس روايته السابقة « سانين » كانت هذه الرواية الجديدة بالغة الرداءة بالتأكيد ، إنها تدور حـول مليونير شاب ووسيم ، لا يستطيع أن يخلص نفسه من إحساس باللاجدوى وفقدان الهدف . إنه يشعر بأنه لا يوجد من يخلص له ، لأنه مليونير . وهو ضجر أيضاً لأنه يستطيع أن يفعل ما يحب بماله ، ولكنه لا يريد أن يفعل شيئاً معيناً بالتحديد . ولا يقع الكثير من الأحداث ،

---

١ آرتسيبا شيف (١٨٧٨ – ١٩٢٧) ، كاتب روائي ومسرحي روسي ، اشتهر بأكبر أعماله الروائية « سانين » وهو شبيه بزميله الكاتب الروسي أندرييف في الأسلوب والموقف الفكري ، وإن كان أقل منه قيمة وانتاجاً. لا يعتبره النقاد الروس من دعامات الواقعية في الأدب الروسي. (ه . م)

باستثناء أنه يتشاجر مع عشيقته ومع أفضل أصدقائه ، ويحاول دون نجاح أن يتوسط لحل مشكلة اضراب يقع في المصنع الذي يملكه ، وينتهي بالانتحار .

لقد أنهيت هذا الكتاب في حالة من السخط العميق . ما الذي كان آرتسيباشيف يحاول أن يقول ؟ ان الحياة كئيبة جهمة حتى بالنسبة لمليونير ؟ ليس هذا بالأمر المحتمل ، خاصة وأن « سانين » رواية تتميز بما تفيض به من استبشار ودفء . ان من الأفضل لك أن تكون فقيراً على أن تكون مليونيراً ؟ أشك في أن يكون المؤلف على هذه الدرجة من السذاجة . كلا ، إن مشكلة الكتاب الحقيقية هي أن المؤلف كثير الشبه بمليونيره السأمان الضجر إلى حد بعيد وهو أيضاً لا يستطيع أن يرى السبب الذي يجعل الحياة شيئاً مضجراً للغاية إذا كان المرء يملك من المال ما يكفي لجعل حياته إجازة متصلة لا عمل فيها .

ولو أن آرتسيباشيف كان كاتباً أكثر عظمة — وأكثر أمانة — إذن لكان قد بدأ روايته بقوله : « والآن أيها السادة ، فلنرسم ميزانية لحساب الحياة . إننا إذا لم نكن نعاني من بعض الأمراض ، وإذا لم نكن نموت من الجوع أو نعذب عذاباً شديداً ، فلن يكون هناك سبب مادي يمنعنا من الاستمرار في الحياة . إن قدرة الجسد على الاستمتاع والتلذذ قدرة كبيرة . واحتمالات العالم وامكانياته بالنسبة لرجل يمتلك ذهناً حياً هي احتمالات وامكانيات هائلة . ومع هذا فإن أمامنا مليونيراً ، يتمتع بصحة جيدة وشكل جذاب ، ولكنه يجد ان الحياة كئيبة كآبة لا تطاق . لماذا ؟ هل الحياة كئيبة حقاً إلى هذه الدرجة ؟ ما هي تلك القوى الخفية التي تجبره في النهاية على الانتحار ؟ »

وبدلاً من محاولته تحديد تلك القوى ، بالطريقة التي يستخدمها عالم البيولوجيا في عزل جرثومة غير مرئية حتى يستطيع أن يراها تحت المجهر ،